# الباب الأول

# الحاجة إلى الدين

- معنى الدين .
- حاجة العقل والفِطرة والنفس .
- حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط أخلاقية .
- العلم والفلسفة ليسا بديلين عن الدين .
- هل الدين أفيون الشعوب ؟

# الحاجة إلى الدين

● **معنى الدين** :

قبل أن نتحدث عن الحاجة إلى الدين عامة ، وإلى الإسلام خاصة ، ينبغى لنا أن نبين المعنى المراد بكلمة ( الدين ) .

ولا نريد أن نطيل الحديث فى ذلك عند اللُّغويين وعند مؤرخى الأديان ، وفلاسفة المِلل والنحل ، وندخل فى الموضوع مباشرة .

وقد بحث ذلك شيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه القيم ( الدين ) ثم خرج بالتعريف التالى للدين ، أى دين ، صحيح أو فاسد ، كتابى أو وثنى . قال رحمه الله :

الدين هو : « الاعتقاد بوجود ذات - أو ذوات - غيبية علوية ، لها شعور واختيار ، ولها تصرف وتدبير للشؤون التى تعنى الإنسان ، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية فى رغبة ورهبة ، وفى خضوع وتمجيد » وبعبارة موجزة ، هو « الإيمان بذات إلَهية ، جديرة بالطاعة والعبادة » . هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية بمعنى التدين ، أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجة فنقول : « هو جملة النواميس النظرية التى تحدد صفات تلك القوة الإلَهية ، وجملة القواعد العملية التى ترسم طريق عبادتها » (١) .

فهذا التعريف يشمل الدين من حيث هو ، ولو كان قائماً على الشرك والوثنية . ذلك أن القرآن سمَّاه ديناً ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (٣) .

---

(١) الدين ص ٥٢ ، طبع دار القلم بالكويت .

(٢) الكافرون : ٦ (٣) آل عمران : ٨٥

وقد عرف علماء الإسلام الدين بأنه : « وضع إلَهى سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم إلى ما فيه الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل » .

❊ ❊

## ● الأديان السماوية ووحدتها :

ومن المعروف للدارسين أن الأديان نوعان :

١ - أديان سماوية أو كتابية ، على معنى أن لها كتاباً نزل من السماء ، يحمل هداية الله للبَشر ، مثل ( اليهودية ) التى أنزل الله فيها كتابه ( التوراة ) على رسوله ( موسى ) عليه السلام . ومثل ( النصرانية ) التى أنزل الله فيها كتابه ( الإنجيل ) على رسوله المسيح ( عيسى ) عليه السلام . ومثل ( الإسلام ) الذين أنزل الله فيه ( القرآن ) على خاتم رُسُله وأنبيائه ( محمد ) عليه الصلاة والسلام .

وفرق ما بين الإسلام والأديان الكتابية الأُخرى : أن الله تعالى حفظ أُصول الإسلام ومصادره بوصفه الرسالة الأخيرة للبَشر ، فلم يصبها تحريف ولا تبديل ، فى حين لم يحفظ مصادر الأديان الأُخرى وكتبها المقدَّسة ، فحُرفت وبُدلت ، أو ضاعت .

٢ - وأديان وثنية أو وضعية ، تنسب إلى الأرض لا السماء ، وإلى البَشر لا إلى الله مثل ( البوذية ) فى الصين واليابان ، و( الهندوسية ) فى الهند ، و( المجوسية ) فى فارس قديماً ، وغيرها من الأديان فى آسيا وأفريقيا . فهى إما من وضع البَشر أساساً مثل البوذية ، وإما أن يكون لها كتاب فى الأصل ثم ضاع ولم يبق له أثر ، كما فى المجوسية .

والأصل أن الأديان السماوية واحدة فى أصولها العقائدية ، وإن اختلفت شرائعها باختلاف أزمنتها ، وهذا ما بينه القرآن وأكده : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ

وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ (٢) .

بل قرر القرآن أن دين الله واحد ، أنزل به جميع كتبه ، وبعث به جميع رُسُله ، وهو ( الإسلام ) كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (٣) ، فكل رُسُل الله كانوا مسلمين ، ودعوا إلى الإسلام ، ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلَا نَصْرَانِياً ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً ﴾ (٤) ، ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ (٥) ، وموسى قال لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ (٦) ، والحواريون أصحاب عيسى : ﴿ قَالُوا : آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٧) .

ومحمد خاتم الرُّسُل بُعث بالإسلام - دين الرُّسُل جميعاً - مصدقاً لما بين يديه - أى ما تقدمه - من الأديان ، ومؤكداً لما تضمنته كتبها من حقائق الدين ، وقواعد السلوك ، كما جاء القرآن مهيمناً على تلك الكتب ، مصححاً لما أصابها من تحريف لفظى أو معنوى لكلمات الله فيها ، متمماً لمكارم الأخلاق التى جاء بها رُسُل الله من قبل ، حتى تبلغ غايتها بعد أن بلغت البَشرية أشدها ، واستكملت رشدها .

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (٨) .

وسنبين فى هذا الباب حاجة الإنسان - فرداً ومجتمعاً - إلى الدين بصفة

---

(١) الشورى : ١٣ (٢) المائدة : ٤٨ (٣) آل عمران : ١٩
(٤) آل عمران : ٦٧ (٥) البقرة : ١٣٢ (٦) يونس : ٨٤
(٧) آل عمران : ٥٢ (٨) المائدة : ٤٨

عامة ، وإلى الأديان الكتابية بصفة خاصة ، وإلى الإسلام خاتمتها على وجه أخص .

❊ ❊

## ● حاجة الإنسان إلى الدين :

إن حاجة الإنسان إلى الدين عامة ، وإلى الإسلام خاصة ، ليست حاجة ثانوية ولا هامشية ، إنها حاجة أساسية أصيلة ، تتصل بجوهر الحياة ، وسر الوجود ، وأعمق أعماق الإنسان .

وفى أقصى ما يمكن من الإيجاز - غير المخل - نبين هنا وجه الحاجة إلى الدين فى حياة الإنسان :

### ❊ حاجة العقل إلى معرفة الحقائق الكبرى فى الوجود :

١ - حاجة الإنسان إلى عقيدة دينية تنبثق - أول ما تنبثق - من حاجته إلى معرفة نفسه ومعرفة الوجود الكبير من حوله ، أى إلى معرفة الجواب عن الأسئلة التى شغلت بها فلسفات البَشر ولم تقل فيها ما يشفى .

فالإنسان منذ نشأته تلح عليه أسئلة يحتاج إلى الجواب عنها : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولِمَ ؟! ومهما تشغله مطالب العيش عن هذا التساؤل ، فإنه لا بد واقف يوماً ليسأل نفسه هذه الأسئلة الخالدة :

( أ ) يقول الإنسان فى نفسه : من أين جئتُ وجاء هذا الكون العريض من حولى ؟ هل وُجِدتُ وحدى أم هناك خالق أوجدنى ؟ ومَن هو ؟ وما صلتى به ؟ وكذلك هذا العالَم الكبير بأرضه وسمائه ، وحيوانه ونباته وجماده وأفلاكه ، هل وُجِد وحده أم أوجده خالق مُدبِّر ؟ (١) .

( ب ) ثم ماذا بعد هذه الحياة . . . وبعد الموت ؟ إلى أين المسير بعد هذه

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم - ص ٥٢

الرحلة القصيرة على ظهر هذا الكوكب الأرضى ؟ أتكون قصة الحياة مجرد « أرحام تدفع ، وأرض تبلع » ولا شيء بعد ذلك ؟ وكيف تستوى نهاية الأخيار الطاهرين الذين ضحوا بأنفسهم فى سبيل الحق والخير ، ونهاية الأشرار الملوثين الذين ضحوا بغيرهم فى سبيل الهوى والشهوة ؟ أتختتم الحياة بالموت ؟ . . أم هناك وراء الموت حياة يجزى فيها الذين أساءوا بما عملوا والذين أحسنوا بالحسنى ؟

( جـ ) ثم لماذا وُجد الإنسان ؟ لماذا أُعطى العقل والإرادة وتميَّز عن سائر الحيوان ؟ لماذا سُخِّر له ما فى السموات وما فى الأرض ؟ أهناك غاية من وجوده ؟ أله مهمة فى حياته ؟ أم وُجد لمجرد أن يأكل كما تأكل الأنعام - ثم ينفق كما تنفق الدواب ؟ وإن كانت هناك غاية من وجوده فما هى ؟ وكيف يعرفها ؟

أسئلة تلح على الإنسان فى كل عصر وتتطلب الجواب الذى يشفى الغليل ويطمئن به القلب ، ولا سبيل إلى الجواب الشافى إلا باللجوء إلى الدين . . . إلى العقيدة الدينية الصافية . الدين هو الذى يعرِّف الإنسان - أول ما يعرِّفه - أنه لم يخرج من العدم إلى الوجود صدفة ، ولا قام فى هذا الكون وحده ، وإنما هو مخلوق لخالق عظيم ، هو ربه الذى خلقه فسوَّاه فعدله ونفخ فيه من روحه ، وجعل له السمع والبصر والفؤاد ، وأمده بنعمه الغامرة ، منذ كان جنيناً فى بطن أمه : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِين * فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القَادِرُونَ ﴾ (١) .

وهذا الكون الكبير من حوله ليس غريباً عنه ولا عدواً له ، إنه مخلوق مثله لله لا يسير جزافاً ولا يمشى اعتباطاً ، كل شيء فيه بقَدَر ، وكل أمر فيه بحساب وميزان ، إنه نعمة من الله للإنسان ورحمة ، ينعم بخيراته ، ويستفيد

---

(١) المرسلات : ٢٠ - ٢٣

من بركاته ، ويتأمل فى آياته ، فيستدل به عن ربه : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (١) ، ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

بهذه العقيدة يرتبط الإنسان بالوجود الكبير ، وبرب الوجود كله ، ولا يعيش منطوياً على نفسه ، معزولاً عما حوله ، أو خائفاً منه .

والدين هو الذى يُعرِّف الإنسان : إلى أين يسير بعد الحياة والموت ؟ إنه يعرِّفه أن الموت ليس فناءً محضاً ، ولا عدماً صرفاً ، إنما هو انتقال إلى مرحلة أُخرى . . إلى حياة برزخية بعدها نشأة أخرى توفّى فيها كل نفس ما كسبت ، وتخلد فيما عملت ، فلا يضيع هناك عمل عامل من ذكر أو أُنثى ، ولا يفلت من العدل الإلهى جبار أو مستكبر : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْاْ أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراًّ يَرَهُ ﴾ (٣) بهذا يعيش الإنسان بوجدانه فى الخلود ، ويعلم أنه خلق للأبد ، وإنما ينتقل بالموت من دار إلى دار .

والدين هو الذى يُعرِّف الإنسان : لماذا خُلق ؟ ولماذا كُرِّم وفُضِّل ؟ يُعرِّفه بغاية وجوده ، ومهمته فيه ، إنه لم يُخلق عبثاً ، ولم يُترك سدىً ، إنه خُلق ليكون خليفة الله فى الأرض ، يعمرها كما أمر الله ، ويُسخِّرها لما يحب الله ، يكشف عن مكنوناتها ، ويأكل من طيباتها ، غير طاغٍ على حق غيره ، ولا ناسٍ حق ربه . وأول حقوق ربه عليه أن يعبده وحده ، ولا يُشرك به شيئاً ، وأن يعبده بما شرع ، على ألسنة رُسُله ، الذين بعثهم إليه هداة معلمين ، مبشرين ومنذرين ، فإذا أدَّى مهمته فى هذه الدار المحفوفة بالتكليف والابتلاء ، وجد جزاءه هناك فى الدار الآخرة : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً ﴾ (٤) .

---

(١) الأعلى : ٢ - ٣ (٢) آل عمران : ١٩٠

(٣) الزلزلة : ٦ - ٨ (٤) آل عمران : ٣٠

بهذا يدرك الإنسان سر وجوده ، ويستبين مهمته فى الحياة ، بينها له بارىء الكون ، وواهب الحياة ، وخالق الإنسان .

إن الذى يعيش بغير دين - بغير عقيدة فى الله والآخرة - إنسان شقى محروم حقاً . إنه فى نظر نفسه مخلوق حيوانى ، ولا يفترق عن الحيوانات الكبيرة التى تدب على الأرض من حوله . . . والتى تعيش وتتمتع ثم تموت وتنفق ، بدون أن تعرف لها هدفاً ، أو تدرك لحياتها سراً ، إنه مخلوق صغير تافه لا وزن له ولا قيمة ، وُجِد ولا يعرف : كيف وُجِد ، ولا مَن أوجده ؟ ويعيش ولا يدرى : لماذا يعيش ؟ ويموت ولا يعلم لماذا يموت ؟ وماذا بعد الموت ؟ إنه فى شك - بل فى عمى - من أمره كله : محياه ومماته ، مبدئه ومنتهاه ، كالذين قال الله فيهم : ﴿ بَلِ ٱدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ، بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾(١) .

وما أقسى حياة إنسان يعيش فى جحيم الشك والحيرة أو فى ظلمات العمى والجهل ، فى أخص ما يخصه : فى حقيقة نفسه ، وسر وجوده ، وغاية حياته . إنه الشقى التعيس حقاً ، وإن غرق فى الذهب والحرير وأسباب الرفاهية والنعيم ، وحمل أرقى الشهادات ، وتسلم أعلى الدرجات ! وفرق كبير بين إنسان كعمر الخيام يقول فى حال حيرته وشكه :

لبستُ ثوب العمر لم أستشر ... وحرتُ فيه بين شتَّى الفكر !

وسوف أنضو الثوب عنى ، ولم ... أدر : لماذا جئتُ ، أين المفر ؟

وبين آخر يقول فى يقين وطمأنينة :

وما الموت إلا رحلة ، غير أنها ... من المنزل الفانى إلى المنزل الباقى !

ويقول عمر بن عبد العزيز : « إننا خُلِقنا للأبد ، وإنما ننقل من دار إلى دار » .

---

(١) النمل : ٦٦

إن حاجة الإنسان إلى الدين تنبثق - قبل كل شيء - من حاجته إلى معرفة حقيقة نفسه وإلى معرفة حقائق الوجود الكبرى ، وأول هذه الحقائق وأعظمها : وجود الله تعالى ووحدانيته وكماله سبحانه ، فبمعرفته والإيمان به - جلَّ شأنه - تنحل عقد الوجود ، ويتضح للإنسان الغاية والوجهة ، ويتحدد المنهج والطريق .

❊ ❊

## ❊ حاجة الفطرة البَشرية :

٢ - ما ذكرناه من حاجة الإنسان إلى الدين يتصل بحاجاته العقلية ، ولكن هناك حاجة الوجدان والشعور أيضاً ، فالإنسان ليس عقلاً فقط ، كالأدمغة الألكترونية ، إنما هو عقل ووجدان وروح ، هكذا تكوَّنت فطرته ، ونطقت جبلته . فالإنسان بفطرته لا يقنعه علم ولا ثقافة ، ولا يُشبع نهمته فن ولا أدب ، ولا يملأ فراغ نفسه زينة أو متعة ، ويظل قلق النفس ، جوعان الروح ، ظمآن الفطرة ، وشاعراً بالفراغ والنقص ، حتى يجد العقيدة فى الله ، فيطمئن بعد قلق ، ويسكن بعد اضطراب ، ويأمن بعد خوف ، ويحس بأنه وجد نفسه .

يقول الفيلسوف « أجوست سياتيه » فى كتابه « فلسفة الأديان » [١] :

« لماذا أنا متدين ؟ إنى لم أُحرِّك شفتى بهذا السؤال مرة ، إلا وأرانى مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : أنا متدين ، لأنى لا أستطيع خلاف ذلك ، لأن التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى . يقولون لى : ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج ، فأقول لهم : قد اعترضتْ على نفسى كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ، ولكنى وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها » .

ولا عجب أن وجدنا هذه العقيدة عند كل الأمم ، بدائية ومتحضرة ، وفى

---

(١) الإسلام فى عصر العلم ، للمرحوم محمد فريد وجدى .

كل القارات شرقية وغربية ، وفى كل العصور قديمة وحديثة ، وإن كان الأكثرون قد انحرفوا بها عن الصراط المستقيم .

يقول المؤرخ الإغريقى « بلوتارك » : قد وُجِدت فى التاريخ مدن بلا حصون ، ومدن بلا قصور ، ومدن بلا مدارس ، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد . . . .

ولهذا جعل القرآن الدين - بمعنى العقيدة - هو الفطرة البَشرية نفسها : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (١) .

* *

## * حاجة الإنسان إلى الصحة النفسية والقوة الروحية :

٣ - وثمت حاجة أُخرى إلى الدين : حاجة تقتضيها حياة الإنسان وآماله فيها ، وآلامه بها . . . حاجة الإنسان إلى ركن شديد يأوى إليه ، وإلى سناد متين يعتمد عليه ، إذا ألـمَّت به الشدايد ، وحلّت بساحته الكوارث ، ففقد ما يحب ، أو واجه ما يكره ، أو خاب ما يرجو ، أو وقع به ما يخاف ، هنا تأتى العقيدة الدينية ، فتمنحه القوة عند الضعف ، والأمل فى ساعة اليأس ، والرجاء فى لحظة الخوف ، والصبر فى البأساء والضرَّاء ، وحين البأس .

إن العقيدة فى الله وفى عدله ورحمته ، وفى العوض والجزاء عنده فى دار الخلود ، تهب الإنسان الصحة النفسية والقوة الروحية ، فتشع فى كيانه البهجة ، ويغمر روحه التفاؤل ، وتتسع فى عينه دائرة الوجود ، وينظر إلى الحياة بمنظار مشرق ، ويهون عليه ما يلقى وما يكابد فى حياته القصيرة الفانية ، ويجد من العزاء والرجاء والسكينة ما لا يقوم مقامه ولا يُغنى عنه علم ولا فلسفة ولا مال ولا ولد ولا مُلْك المشرق والمغرب .

---

(١) الروم : ٣٠

ورضى الله عن عمر إذ قال : « ما أصبتُ بمصيبة إلا كان لله علىّ فيها أربع نِعَم : أنها لم تكن فى دينى . . . وأنها لم تكن أكبر منها . . . وأننى لم أحرم الرضا عند نزولها . . . وأننى أرجو ثواب الله عليها » (١) .

أما الذى يعيش فى دنياه بغير دين ، بغير إيمان ، يرجع إليه فى أموره كلها - وبخاصة إذا ادلهمت الخطوب ، وتتابعت الكروب ، والتبست على الناس المسالك والدروب - يستفتيه فيفتيه ، ويسأله فيجيبه ، ويستعينه فيعينه ، ويمنحه المدد الذى لا يغلب ، والعون الذى لا ينقطع - الذى يعيش بغير هذا الإيمان - يعيش مضطرب النفس ، متحير الفكر ، مبلبل الاتجاه ، ممزق الكيان ، شبَّهه بعض فلاسفة الأخلاق بحال « راقاياك » التعس ، الذى يحكون عنه أنه اغتال الملك ، فكان جزاؤه أن يُربط من يديه ورجليه إلى أربعة من الجياد ، ثم ألهب ظهر كل منها ، لتتجه مسرعة ، كل واحد منها إلى جهة من الجهات الأربع ، حتى مُزِّق جسمه شر مُمزَّق !

هذا التمزق الجسمى البشع مثل للتمزق النفسى الذى يعانيه مَنْ يحيا بغير دين ، ولعل الثانى أقسى من الأول وأنكى فى نظر العارفين المتعمقين ، لأنه تمزق لا ينتهى أثره فى لحظات ، بل هو عذاب يطول مداه ، ويلازم مَن نُكِب به طول الحياة .

ولهذا نرى الذين يعيشون بغير عقيدة راسخة يتعرضون أكثر من غيرهم للقلق النفسى ، والتوتر العصبى ، والاضطراب الذهنى ، وهم ينهارون بسرعة إذا صدمتهم نكبات الحياة ، فإما انتحروا انتحاراً سريعاً ، وإما عاشوا مرضى النفوس ، أمواتاً كالأحياء ! على نحو ما قال الشاعر العربى قديماً :

ليس مَن مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء !

إنما الميت من يعيش كئيباً ... كاسفاً باله قليل الرجاء !

---

(١) انظر موضوع « الثبات فى الشدائد » من كتابنا « الإيمان والحياة » ، وكذلك موضوع « القوة » - طبع - مؤسسة الرسالة ببيروت ، ومكتبة وهبة بالقاهرة .

وهذا ما يقرره علماء النفس وأطباء العلاج النفسى فى العصر الحديث . وهو ما سجَّله المفكرون والنُقَّاد فى العالَم كله .

يقول المؤرخ الفيلسوف « آرنولد توينبى » :

« الدين إحدى المَلَكات الضرورية الطبيعية البَشرية ، وحسبنا القول بأن افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحى ، تضطره إلى التماس العزاء الدينى على موائد لا تملك منه شيئاً » (١) .

ويقول الدكتور « كارل بانج » فى كتابه « الإنسان العصرى يبحث عن نفسه » : « إن كل المرضى الذين استشارونى خلال الثلاثين سنة الماضية ، من كل أنحاء العالَم ، كان سبب مرضهم هو نقص إيمانهم ، وتزعزع عقائدهم ، ولم ينالوا الشفاء إلا بعد أن استعادوا إيمانهم » (٢) .

ويقول « وليم چيمس » فيلسوف المنفعة والذرائع : « إن أعظم علاج للقلق - ولا شك - هو الإيمان » .

ويقول الدكتور « بريال » : « إن المرء المتدين حقاً لا يعانى قَط مرضاً نفسياً » .

ويقول « ديل كارنيجى » فى كتابه « دع القلق وابدأ الحياة » : « إن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوى والاستمساك بالدين ، كفيلان بأن يقهرا القلق ، والتوتر العصبى ، وأن يشفيا من هذه الأمراض » .

وقد أفاض الدكتور « هنرى لنك » فى كتابه « العودة إلى الإيمان » فى بيان ذلك والتدليل عليه بما لمسه وجرَّبه من وقائع وفيرة ، خلال عمله فى العلاج النفسى (٣) .

* *

(١) مختصر دراسة التاريخ : ٣/ ١٧٩

(٢) انظر : كتاب الإسلام يتحدى ، ص ٢٨١

(٣) انظر : فصل « بين العلم والإيمان » من كتابنا « الإيمان والحياة » وبخاصة ما كُتِب تحت عنوان : « الطب النفسى فى موكب الإيمان » .

## ※ حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط أخلاقية :

٤ - وهناك حاجة أخرى إلى الدين : حاجة اجتماعية ، إنها حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط : بواعث تدفع أفراده إلى عمل الخير ، وأداء الواجب وإن لم يوجد من البَشر مَن يراقبهم ، أو يكافئهم . . وضوابط تحكم علاقاتهم ، وتُلزم كل واحد منهم أن يقف عند حده ، ولا يعتدى على حق غيره أو يُفرِّط فى خير مجتمعه ، من أجل شهوات نفسه ، أو منفعته المادية العاجلة .

ولا يقال : إن القوانين واللوائح كافية لإيجاد هذه الضوابط وتلك البواعث ، فإن القوانين لا تخلق باعثاً ، ولا تكفى ضابطاً ، فإن الإفلات منها ممكن ، والاحتيال عليها ميسور ، ولهذا كان لا بد من بواعث وضوابط أخلاقية ، تعمل من داخل النفس الإنسانية لا من خارجها . لا بد من هذا الباعث الداخلى ، ومن هذا : الوازع الذاتى ، لا بد من الضمير ، أو « الوجدان » أو « القلب » - سمه ما شئت - فهو القوة التى إذا صلحت صلح عمل الإنسان كله ، وإذا فسدت فسد كله .

ولقد عرف الناس بالمشاهدة والتجربة واستقراء التاريخ ، أن العقيدة الدينية لا يغنى غناءها شىء فى تربية الضمير وتزكية الأخلاق ، وتكوين البواعث التى تحفز على الخير ، والضوابط التى تردع عن الشر ، حتى قال بعض قضاة العصر فى بريطانيا - وقد هاله ما رأى من جرائم موبقة ، رغم تقدم العلم ، واتساع الثقافة ، ودقة القوانين : « بدون أخلاق لا يوجد قانون ، وبدون إيمان لا توجد أخلاق » [١] .

ولا غرو أن اعترف بعض الملاحدة أنفسهم بأن الحياة لا تستقيم بدون دين ، بدون عقيدة فى الله وفى الجزاء فى الآخرة ، حتى قال « ڤولتير » : « لو لم يكن الله موجوداً لوجب علينا أن نخلقه » ! أى نخترع للناس إلهاً يرجون

---

(١) انظر : فصل « الإيمان والأخلاق » من كتابنا : « الإيمان والحياة » طبع مؤسسة الرسالة ببيروت ومكتبة وهبة بالقاهرة .

رحمته ويخافون عذابه ، ويلتمسون رضاءه فيعملون الصالحات ، ويتجنبون السيئات ، ويقول مرة أخرى ساخراً : « لِمَ تشككون فى وجود الله ، ولولاه لخانتنى زوجتى ، وسرقنى خادمى » !!

وقال « بلوتارخ » : « إن مدينة بلا أرض تقوم عليها ، أسهل من قيام دولة بلا إله » !!

* *

*** حاجة المجتمع إلى التعاون والتماسك :**

٥ - ثم إن للدين دوراً كبير الأهمية فى توثيق الصلة بين الناس بعضهم وبعض ، باعتبارهم جميعاً عبيداً لرب واحد خلقهم ، وأبناء لأب واحد نسلهم ، فضلاً عما ينشئه الدين بينهم من أخوة العقيدة ، وآصرة الإيمان .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) وما تحدثه هذه الأخوة الدينية من آثار فى الأنفس والحياة ، حتى نجد أحدهم يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، بل يؤثر أخاه على نفسه ، ولو كان به خصاصة .

يقول شيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز ، فى كتابه القيم ( الدين ) :

لا حاجة بنا إلى التنبيه على أن الحياة فى الجماعة لا قيام لها إلا بـ « التعاون » بين أعضائها ، وأن هذا التعاون إنما يتم « بقانون » ينظم علاقاته ، ويحدد حقوقه وواجباته ، وأن هذا القانون لا غنى له عن « سلطان » نازع وازع ، يكفل مهابته فى النفوس ويمنع انتهاك حرماته .

تلك كلها مبادئ مقررة ، والحديث فيها معاد مملول .

وإنما الشأن كل الشأن فى هذا السلطان النازع الوازع : ما هو ؟

فالذى نريد أن نثبته فى هذه الحلقة من البحث هو أنه ليس على وجه

---

(١) الحجرات : ١٠

الأرض قوة تكافىء قوة التدين أو تدانيها فى كفالة احترام القانون ، وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه ، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه .

السر فى ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شىء لا يقع عليه سمعه ولا بصره ، ولا يوضع فى يده ولا عنقه ، ولا يجرى فى دمه ، ولا يسرى فى عضلاته وأعصابه ، وإنما هو معنى إنسانى روحانى ، اسمه الفكرة والعقيدة ، فالإنسان أبداً أسير هذه الفكرة والعقيدة .

ولقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية ، بل يتأثران بها ، هذا الرأى الماركسى هو قبل كل شىء نزول بالإنسان عن عرش كرامته ، ورجوع به القهقرى إلى مستوى البهيمية ، ثم هو تصوير مقلوب للحقائق الثابتة المشاهدة فى سلوك الأفراد والجماعات فى كل عصر ؛ فلكى يختار الناس أن يحيوا حياة مادية لا نصيب فيها للقلب ولا للروح ، لا بد أن يقنعوا أنفسهم بادئ ذى بدء بأن سعادتهم هى فى هذا النوع من الحياة . فالإنسان مقود أبداً بفكرة : صحيحة أو فاسدة ، فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شىء ؛ وإن فسدت فسد كل شىء .

أجل إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره ، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق ، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل ؛ فإن الذى يؤدى واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية ، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون .

ومن الخطأ البين أن نظن أن فى نشر العلوم والثقافات وحدها ضماناً للسلام والرخاء ، وعوضاً عن التربية والتهذيب الدينى والخلقى ؛ ذلك أن العلم سلاح ذو حدّين : يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح للبناء والتعمير ؛ ولا بد

فى حسن استخدامه من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض ، لا إلى نشر الشر والفساد .

ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان [1] .

**كلام الإمام محمد عبده :**

وقد بين الأستاذ الإمام محمد عبده فى كتابه الفريد « رسالة التوحيد » وجوه حاجة البَشر إلى النبوة والرسالة الإلهية ، وأنها للنوع الإنسانى بمثابة العقل للفرد الإنسانى ، وأن البَشر لا يستغنون عن هداية الله لهم بحال ، لهذا أرسل إليهم الرُّسُل مبشرين ومنذرين : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [2] ، ولقد أكد هذا فى تفسيره لسورة الفاتحة وبيان حاجة الناس إلى هدى الله سبحانه عند آية : ﴿ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [3] كما نقله صاحب المنار رحمهما الله جميعاً .

وعاد إلى ذلك فى تفسير قوله تعالى من سورة النساء عقب بيان أحكام المواريث : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا . . . ﴾ [4] فقال رحمه الله :

« طاعة الرسول هى طاعة الله بعينها لأنه إنما يأمرنا بما يوحيه إليه الله من مصالحنا التى فيها سعادتنا فى الدنيا والآخرة ، وإنما يذكر طاعة الرسول مع طاعة الله لأن من الناس من كانوا يعتقدون قبل اليهودية وبعدها ، وكذلك بعد الإسلام إلى اليوم : أن الإنسان يمكن أن يستغنى بعقله وعلمه عن الوحى ، يقول أحدهم : إننى أعتقد أن للعالم صانعاً عليماً حكيماً ، وأعمل بعد ذلك بما يصل إليه عقلى من الخير واجتناب الشر . وهذا خطأ من الإنسان ، ولو صح ذلك لما كان فى حاجة إلى الرُّسُل ، وقد تقدم فى تفسير سورة الفاتحة :

---

(١) الدين لشيخنا الدكتور دراز ، ص ٩٨ ، ٩٩ (٢) فاطر : ٢٤

(٣) الفاتحة : ٦ (٤) النساء : ١٣

أن الإنسان محتاج بطبيعته النوعية إلى هداية الدين ، وأنها هى الهداية الرابعة التى وهبها الله للإنسان بعد هداية الحواس والوجدان والعقل ، فلم يكن العقل فى عصر من عصوره كافياً لهداية أمة من أممه ومرقياً له بدون معونة الدين .

**اعتراض من الملحدين وجوابه :**

وقد عقب العلامة السيد رشيد رضا فى تفسير المنار على كلام الشيخ عبده بإيراد اعتراض من المرتابين والملاحدة وأجاب عنه إجابة مطولة ، فقال رحمه الله :

« يرد على هذا من جانب المرتابين والملاحدة : إننا نرى كثيراً من أفراد الناس لا يدينون بدين ، وهم فى درجة عالية من الأفكار والآداب ، وحسن الأعمال التى تنفعهم وتنفع الناس ، حتى أن العاقل المجرد عن التعصب الدينى يتمنى لو كان الناس كلهم مثله ، بل يسعى كثير من الفلاسفة لجعل الأمم مثل هؤلاء الأفراد فى آدابهم وارتقائهم .

وأجيب عن هذا ( أولاً ) : بأن الكلام فى هداية الجماعات من البَشر ، كالشعوب والقبائل والأمم الذين يتحقق بارتقائهم معنى الإنسانية فى الحياة الاجتماعية ، سواء كانت بدوية أو مدنية ، وقد علمنا التاريخ أنه لم تقم مدنية فى الأرض من المدنيات التى وعاها وعرفها إلا على أساس الدين ، حتى مدنيات الأمم الوثنية كقدماء المصريين والكلدانين واليونانيين ، وعلمنا القرآن أنه ما من أُمة إلا وقد خلا فيها نذير مرسل من الله عَزَّ وجَلَّ لهدايتها . فنحن بهذا نرى أن تلك الديانات الوثنية كان لها أصل إلهى ، ثم سرت الوثنية إلى أهلها حتى غلبت على أصلها ، كما سرت إلى من بعدهم من أهل الديانات ، التى بقى أصلها كله أو بعضه على سبيل القطع ، أو على سبيل الظن . وليس للبَشر ديانة يحفظ التاريخ أصلها حفظاً تاماً إلا الديانة الإسلامية ، وهو مع ذلك قد دون فى أسفاره كيفية سريان الوثنية الجلية أو الخفية إلى كثير من المنتسبين إليها كالنصيرية ، وسائر الباطنية وغيرهم ، ممن غلب

عليهم التأويل أو الجهل ، حتى إنه يوجد فى هذا العصر من المنتمين إلى الإسلام من لا يعرفون من أحكامه الظاهرة غير قليل مما يخالفون به جيرانهم ، كجواز أكل لحم البقر فى الأطراف الشاسعة من الهند ! وكيفية الزواج ودفن الموتى فى بعض بلاد روسيا وغيرها !! فمن علم هذا لا يستبعد تحول الديانات الإلهية القديمة إلى الوثنية .

فاتباع الرُّسُل وهداية الدين أساس كل مدنية ، لأن الارتقاء المعنوى هو الذى يبعث على الارتقاء المادى . وها نحن أولاء نقرأ فى كلام شيخ الفلاسفة الاجتماعيين فى هذا العصر « هربرت سبنسر » أن آداب الأمم وفضائلها التى هى قوام مدنيتها مستندة كلها إلى الدين ، وقائمة على أساسه ، وأن بعض العلماء يحاولون تحويلها عن أساس الدين وبناءها على أساس العلم والعقل ، وأن الأمم التى يجرى فيها هذا التحويل ، لا بد أن تقع فى طور التحويل فى فوضى أدبية ، لا تعرف عاقبتها ولا يحدد ضررها . هذا معنى كلامه فى بعض كتبه . وقد قال هو للأستاذ الإمام فى حديث له معه : إن الفضيلة قد اعتلت فى الأمة الإنكليزية وضعفت فى هذه السنين الأخيرة ، من حيث قوى فيها الطمع المادى .

ونحن نعلم أن الأمة الإنكليزية من أشد أمم أوروبا تمسكاً بالدين ، مع كون مدنيتها أثبت ، وتقدمها أعم ، لأن الدين قوام المدنية بما فيه من روح الفضائل والآداب ، على أن المدنية الأوروبية بعيدة عن روح الديانة المسيحية ، وهو الزهد فى المال والسلطان وزينة الدنيا ، فلولا غلبة بعض آداب الإنجيل على تلك الأمم لأسرفوا فى مدنيتهم المادية إسرافاً غير مقترن بشىء من البر وعمل الخير ، وإذاً لبادت مدنيتهم سريعاً . ومن يقل : إنه سيكون أبعدها عن الدين أقربها إلى السقوط والهلاك لا يكون مفتاتاً فى الحكم ، ولا بعيداً عن قواعد علم الاجتماع فيه .

فحاصل هذا الجواب الأول عن ذلك الإيراد : أن وجود أفراد من الفضلاء

غير المتدينين لا ينقض ما قاله الأستاذ الإمام من كون الدين هو الهداية الرابعة لنوع الإنسان التى تسوقه إلى كماله المدنى فى الدنيا ، كما تسوقه إلى سعادة الآخرة .

**وثانياً** : إنه لا يمكن الجزم بأن فلاناً الملحد الذى تراه عالى الأفكار والآداب قد نشأ على الإلحاد وتربى عليه من صغره ، حتى يقال : إنه قد استغنى فى ذلك عن الدين ؛ لأننا لا نعرف أمة من الأمم تربى أولادها على الإلحاد ، وإننا نعرف بعض هؤلاء الملحدين الذين يعدون فى مقدمة المرتقين بين قومهم ، ونعلم أنهم كانوا فى نشأتهم الأولى من أشد الناس تديناً واتباعاً لآداب دينهم وفضائله ، ثم طرأ عليهم الإلحاد فى الكبر ، بعد الخوض فى الفلسفة التى تناقض بعض أصول ذلك الدين الذى نشأوا عليه ، والفلسفة قد تغير بعض عقائد الإنسان ، وآرائه ، ولكن لا يوجد فيها ما يقبح له الفضائل والآداب الدينية ، أو يذهب بملكاته وأخلاقه الراسخة كلها ، وإنما يسطو الإلحاد على بعض آداب الدين كالقناعة بالمال الحلال ، فيزين لصاحبه أن يستكثر من المال ولو من الحرام ، كأكل حقوق الناس والقمار بشرط أن يتقى ما يجعله حقيراً بين من يعيش معهم ، أو يلقيه فى السجن ، وكالعفة فى الشهوات ، فيبيح له من الفواحش ما لا يخل بالشرط المذكور آنفاً ، هذا إذا كان راقياً فى أفكاره وآدابه ، وأما غير الراقين منهم فهم الذين لا يصدهم عن الفساد فى الأرض وإهلاك الحرث والنسل إلا القوة القاهرة .

ولولا أن دول أوروبا قد نظمت فِرَق المحافظين على الحقوق من الشحنة والشُرطة ( البوليس والضابطة ) أتم تنظيم ، وجعلت الجيوش المنظمة عوناً لهم عند الحاجة ، لما حفظ لأحد عندها عرض ولا مال ؛ ولعمت بلادها الفوضى والاختلال ، ولقد كانت الحقوق والأعراض محفوظة فى الأمم من غير وجود هذه القوى المنظمة أيام كان الدين مرعياً فى الآداب والأحكام - فتبين بهذا أن طاعة الله ورُسُله لا بد منها لسعادة الدنيا » [1] .

* *

(١) من تفسير المنار : جـ٤/ ٤٢٨ - ٤٣١

## ● شهادة التاريخ والواقع :

إن تجارب التاريخ وتجارب الواقع كلها تنطق بأصالة الإيمان فى الحياة ، وضرورته للإنسان ، فهو ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ويزكو ، وهو ضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرقى .

يقول الأستاذ العقاد : « إن تجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين فى جميع حركات التاريخ الكبرى ، ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شىء تستطيع الجماعة أن تلغيه ، ويستطيع الفرد أن يستغنى عنه ، فى علاقته بتلك الجماعة ، أو فيما بينه وبين سريرته المطوية من حوله ، ولو كانوا من أقرب الناس إليه .

« ويكرر لنا التاريخ أنه لم يكن قَط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكل ما عداه من العوامل الأخرى فى حركات الأمم ، فإنها تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة فى التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة .

« هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ولا قوة العُرف ، ولا قوة الأخلاق ، ولا قوة الشرائع والقوانين ، إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه ، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه ، أو العلاقة بينه وبين نوعه ، على تعدد الأوطان والأقوام .

« أما الدّين فمرجعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره ، وميدانه يتسع لكل ما فى الوجود من ظاهر وباطن ، ومن علانية وسر ، ومن ماض أو مصير ، إلى غير نهاية ، بين آزال لا تُحصى فى القِدَم ، وآباد لا تُحصى فيما ينكشف عنه عالَم الغيوب . وهذا على الأقل هو ميدان العقيدة الدينية فى مثلها الأعلى ، وغاياتها القصوى ، وإن لم تستوعبها ضمائر المتدينين فى جميع العصور .

« ومن أدلة الواقع على أصالة الدين : أنك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة

بين الجماعة المتدينة ، والجماعة التى لا دين لها ، أو لا تعتصم من الدين بركن مكين .

« وكذلك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة ، وفرد معطَّل الضمير ، مضطرب الشعور ، يمضى فى الحياة بغير محور يلوذ به ، وبغير رجاء يسمو إليه .

« لهذا . . الفارق بين الجماعتين ، وبين الفردين ، كالفارق بين شجرة راسخة فى منبتها وشجرة مجتثة من أصولها !

« وقَلَّ أن ترى إنساناً معطَّل الضمير ، على شىء من القوة والعظمة ، إلا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم ، إذا حلَّت العقيدة فى وجدانه محل التعطل والحيرة » (١) .

* *

## ● لا بديل عن الدين :

ومن الناس مَن يتصور إمكان الاستغناء عن الدين بالعلم الحديث حيناً ، أو المذاهب الفكرية « الأيديولوچيات » الحديثة حيناً آخر .

وكلا التصورين خطأ .

فقد بيَّن الواقع الناطق أنه لا شىء يغنى عن الدين ، ويقوم بديلاً عنه فى أداء رسالته الضخمة فى حياةِ الإنسان .

## * العلم ليس بديلاً عن الدين :

أما العلم فليس بديلاً عن الدين والإيمان بحال . فإن مجال العلم غير مجال الدين . وأريد بـ « العلم » هنا العلم بمفهومه الغربى المحدود ، لا بمفهومه الإسلامى الشامل - الذى يشمل العلم بالظواهر الجزئية للكون ، والعلم

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٥ - ١٦

بحقائق الوجود الكبرى - أى ما يشمل علم الدنيا ، وعلم الدين . فليس هو علم المادة وخواصها فحسب ، بل العلم المتعلق بالكون والحياة والإنسان ، وخالقها سبحانه .

العلم بالمفهوم الغربى لا يصلح بديلاً عن الدين ، لأن مهمة هذا العلم أن يُيسِّر للإنسان أسباب الحياة ، لا أن يفسِّر له ألغازها . العلم يعين الإنسان على حل مشكلة العيش ، ولكن لا يعينه على حل مشكلة الوجود وقضاياه الكبرى .

ولهذا نرى أعظم البلاد فى عصرنا تقدماً فى العلم ، وأخذاً بأسبابه ، يشكو أهلها من الفراغ الروحى ، والقلق النفسى ، والاضطراب الفكرى ، والشعور الدائم بالتفاهة والاكتئاب والضياع . ونرى شبابها ينقلبون بين شتَّى البِدع الفكرية والسلوكية ، ثائرين على آلية الحياة ، ومادية الحضارة ، وإن لم يهتدوا إلى المنهج السليم ، والصراط المستقيم .

وهذا هو سر العوج والشذوذ والانحرافات ، التى لمسها العالَم كله فى سلوك أولئك الشباب الحائرين ، الذين يسمونهم « الخنافس » أو « الهيبيين » وأشباههم ممن ضاق ذرعهم بتفاهة العيش ، وتمردوا على حضارة الغرب وإن نشأوا بين أحضانها .

إن العلم الحديث محدود الوسع ، محدود القُدرة ، محدود المجال .

فى وسع العلم أن يمنح الإنسان الوسائل والآلات ، ولكن ليس فى وسعه ولا من اختصاصه أن يمنحه الأهداف والغايات ، وما أتعس الإنسان إذا تكدَّست لديه الوسائل دون أن يعرف لنفسه هدفاً ولا لحياته قيمة ، إلا أهداف السباع فى العدوان ، أو أهداف البهائم فى الأكل والسِفاد . أما هدف رفيع يليق بمواهب الإنسان ، وخصائص الإنسان ، وكرامة الإنسان ، فلا .

إن الدين وحده هو الذى يمنح الإنسان أهدافاً عليا للحياة وغايات كبرى للوجود ، ويجعل له فيه مهمة ورسالة ، ولحياته قيمة واعتباراً ، كما يمنحه

القيَم الخُلُقية والمُثُل العليا التى تحبسه عن الشر ، وتحفزه على الخير ، لغير منفعة مادية عاجلة .

لقد قوى العلم الجانب المادى فى الإنسان إلى أبعد حد ، ولكنه أضعف الجانب الروحى فيه إلى أدنى مستوى .

فقد أعطى العلم الإنسان جناحى طائر فحلَّق فى الفضاء ، وأعطاه خياشيم حوت فغاص فى أعماق الماء ، ولكنه لم يعطه قلب إنسان !

وحين يعيش الإنسان فى الحياة بغير « قلب الإنسان » تستحيل أدوات العلم فى يديه إلى مخالب وأنياب تقتل وتُرهب ، وإلى معاول وألغام تنسف وتُدمِّر .

تستحيل أدوات العلم إلى أسلحة نووية ، وقنابل نابالم ، وغازات سامة ، وأسلحة كيماوية وجرثومية تنشر الموت والخراب عند استعمالها ، وتشيع الذعر والخوف قبل استعمالها (١) .

أجل . . قد استطاع العلم أن يضع قدم الإنسان على سطح القمر ، ولكنه لم يملك أن يضع يده على سر وجوده وغاية حياته !

لقد اكتشف الإنسان بالعلم « أشياء » كثيرة ، ولكنه لم يكتشف حقيقة نفسه ! أوصله علم القرن العشرين إلى القمر . ولكن لم يوصله إلى السعادة والطمأنينة على ظهر الأرض ! جلب من هناك بعض الصخور والأتربة ، ولكنه لم يجد هناك ما يُخرجه من التعاسة والقلق والضياع فى كوكبه !

أصلح العلم ظاهر الإنسان ، وعجز عن إصلاح باطنه ، لم يستطع أن ينفذ إلى تلك « اللطيفة الربانية » المدركة الواعية ، الشاعرة الحسَّاسة ، التى إذا صلحت صلح الإنسان كله ، وإذا فسدت فسد الإنسان كله ، ألا وهى القلب ، أو النفس ، أو الروح ، سمها ما شئتَ ، فهى حقيقة الإنسان !

---

(١) انظر : كتاب « الأسلحة الكيماوية والجرثومية » تأليف الدكتور نبيل صبحى ، لترى ما يحضِّره أعداء الإنسانية لإفناء الأحياء بسلطان العلم ومقدرة العلماء !! نشرته « مؤسسة الرسالة » ببيروت .

أعطى العلم إنسان القرن العشرين سلاحاً انتصر به على بَعض قُوَى الطبيعة ، ولم يعطه ما ينتصر به على نفسه : على شهواته ، وشكه ، وقلقه ، وخوفه ، وتخبطه ، وصراعه الداخلى والاجتماعى .

لقد تقدَّم الطب الحديث والجراحة إلى أقصى حدودهما فى هذا القرن ، وبدأ الأطباء يقولون : إن العلم يستطيع القضاء على كل مرض غير الموت والشيخوخة !! ولكن الأمراض تكثر وتتشعب وتنتشر بسرعة مذهلة ، ومنها « الأمراض العصبية » و« النفسية » التى هى نتائج وأعراض « التناقض » الشديد الذى يمر به الفرد والمجتمع . وسر ذلك أن العلم المادى - على سعته واكتشافاته - لم يعرف حقيقة الإنسان ، الذى عرف المادة وقوانينها ، ولكنه لم يعرف نفسه ، ولا غرو أن كتب أحد أقطاب العلم « ألكسيس كاريل » كتابه الشهير : « الإنسان ذلك المجهول » .

ومن هنا حاول العلم الحديث أن يغذى كل الجوانب المادية فى الجسم الإنسانى ، ولكنه فشل فى تغذية النفس الإنسانية مما فيها من شعور وأمانى وإرادة . . . وكانت حصيلة ذلك جسماً طويل القامة ، قوى العضلات ، ولكن الجانب الآخر - وهو أصل الإنسان - أصبح يعانى من أزمات لا حل لها .

لقد أكدت إحصائية : أن ثمانين فى المائة (٨٠٪) من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضاً ناتجة عن أزمات نفسية وعصبية من ناحية أو أخرى .

ويقول علم النفس الحديث : إن من أهم جذور هذه الأمراض النفسية : الكراهية والحقد والخوف والإرهاق واليأس والترقب والشك والآثرة والانزعاج من البيئة ، وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الإيمان بالله [1] .

---

(١) انظر : كتاب « الإسلام يتحدى » للأستاذ وحيد الدين خان ، وكتابنا « الإيمان والحياة » - أثر الإيمان فى حياة الفرد .

## ● الفلسفة ليست بديلاً عن الدين :

لقد تبين لنا أن إنسان العلم الحديث هو « ذلك المجهول » الذى لم يستطع العلم أن يسبر غوره ، وأن يتعرف على حقيقته ، وأن ينفذ إلى أعماقه ، كما بيَّن ذلك « ألكسيس كاريل » و« رينيه دوبو » ، وغيرهما . لقد عرف العلم الجمادات أو المادة ، وحلَّلها واكتشف قوانينها ، ولكنه عجز عن معرفة الإنسان ، لأن الإنسان من التركيب والتعقيد بحيث لا يعرفه إلا مَن خلقه فسوَّاه : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) .

وما دام العلم يجهل الإنسان ، فلا يؤمل منه أن يُحسن توجيهه وتربيته والتشريع له ، بل بدا اليوم أن العلم - وبعبارة أدق : تطبيقاته التكنولوجية - أصبح خطراً على فِطرة الإنسان ، وبيئة الإنسان .

و« إنسان الفلسفة » ليس أحسن حظاً من إنسان العلم ، والفلسفة رغم اهتمامها بالإنسان - منذ أنزلها « سقراط » من السماء إلى الأرض ووجَّه العقل الإنسانى إلى محاولة اكتشاف ذاته : اعرف نفسك - لم تتفق على رأى فى نظرتها إلى الإنسان : أهو روح أم مادة ؟ جسم يفنى أم روح يبقى ؟ عقل أم شهوة ؟ ملاك أم شيطان ؟ الأصل فيه الخير أم الشر ؟ . . أهو إنسان كما نراه ، أم ذئب مقنّع ؟ أهو أنانى أم غيرى ؟ أهو فردى أم جَماعى ؟ أهو ثابت أم متطور ؟ أتجدى فيه التربية أم لا تجدى ؟ أهو مختار أم مجبور ؟

اختلفت الفلسفات فى الإجابة عن هذه التساؤلات وتناقضت ، فلا تستطيع أن تخرج منها بطائل ، حتى قال شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود - وهو أستاذ الفلسفة فى كلية أُصول الدين - قبل أن يكون شيخاً للأزهر : « الفلسفة لا رأى لها ، لأنها تقول الرأى وضده ، والفكرة ونقيضها » .

هنا نجد الفلسفة الإلهية مناقضة للفلسفة المادية ، والفلسفة المثالية مناقضة

---

(١) الملك : ١٤

للفلسفة الواقعية ، وفلسفة الواجب معارضة لفلسفة المنفعة أو اللَّذة ، إلى آخر ما نعرفه من تناقضات فى الساحة الفلسفية ، فهذا يثبت ، وذاك ينفى ، وهذا يبنى ، وذاك يهدم .

ومن هنا لا تستطيع الفلسفة وحدها أن تهدى الإنسان سبيلاً أو تشفى له غليلاً ، أو تمنحه منهجاً يركن له ويطمئن إليه ، ويقيم حياته على أساسه .

وأبعد الفلسفات عن هداية الإنسان وإسعاده هى الفلسفات المادية ، التى تنكر أن للكون إلهاً ، وأن للإنسان روحاً ، وأن وراء الدنيا آخرة . وعلى رأس هذه الفلسفات : الفلسفة الماركسية القائمة على المادية الجدلية ، والتى تتبنى مقولة بعض الفلاسفة الماديين : ليس صواباً أن الله خلق الإنسان ، بل الصواب أن الإنسان هو الذى خلق الله !!

ومثل ذلك : الفلسفات العبثية والعدمية والشكية ، فكلها فلسفات تهدم ولا تبنى ، وتميت ولا تحيى .

ويبين شيخنا الدكتور دراز الفرق بين الفلسفة والدين ، فيرى أن الفلسفة فكرة هادئة باردة ، أما الدين فهو قوة دافعة ، فعالة ، خلاقة ، لا يقف فى سبيلها شىء فى الكون إلا استهانت به أو تبلغ هدفها .

ذلك هو فصل ما بين الفلسفة والدين ، غاية الفلسفة المعرفة ؛ وغاية الدين الإيمان ، مطلب الفلسفة فكرة جافة ، ترتسم فى صورة جامدة ؛ ومطلب الدين روح وثابة ، وقوة محركة .

لا نقول كما يقول كثير من الناس : إن الفلسفة تخاطب العقول ؛ وإن الدين فى كل أوضاعه لا يقنع بعمل العقل قليلاً أو كثيراً حتى يضم إليه ركون القلب .

الفلسفة تعمل إذاً فى جانب من جوانب النفس ، والدين يستحوذ عليها فى جملها . ومن هنا يستنبط فرق دقيق بين الفلسفة والدين :

ذلك أن غاية الفلسفة نظرية ، حتى فى قسمها العملى ، وغاية الدين عملية ، حتى فى جانبه العلمى ، فأقصى مطالب الفلسفة أن تعرفنا الحق والخير ما هما ؟ وأين هما ؟ ولا يعنيها بعد ذلك موقفنا من الحق الذى تعرفه ، والخير الذى تحدده . أما الدين فيعرفنا الحق لا لنعرفه فحسب ، بل لنؤمن به ونحبه ونمجده ، ويعرفنا الواجب لنؤديه ونوفيه ، ونكمل نفوسنا بتحقيقه .

ثم يبين شيخنا أن الدين حركة شعبية ( ديمقراطية ) عامة ، والفلسفة حركة ( أرستقراطية ) خاصة . فالدين يسعى بطبيعته إلى الانتشار ، والفلسفة تجنح إلى العزلة ، داعية الدين وسط الجماهير ، ورجل الفلسفة فى برجه العاجى ، فإذا رأيت فيلسوفاً يدعو إلى مذهبه فقد تغير وضعه ، وتحولت فكرته إلى إيمان ، وإذا رأيت مؤمناً لا يهتم إلا بنفسه فقد استحالت نار إيمانه إلى رماد .

* *

● **تفنيد مقولة ( الدين أفيون الشعوب ) :**

أما دعوى الماركسيين : أن الدين ( أفيون الشعوب ) يفعل فى عقولها ما تفعله المخدرات بالأفراد ، ويشغلهم عن حقوقهم المسلوبة ، بأمانى الآخرة ، ويخضعهم لإرادة الظلمة والطغاة ، فيطيعونهم وهم راضون - فهى دعوى مردودة .

ذلك أن الدين الصحيح لا يُخدِّر الشعب ، ولا يلهيه عن المطالبة بحقه فى الدنيا ، استغراقاً بطلب النعيم فى الآخرة ! الدين الصحيح لا يقر الظلم ، ولا يرضى بالفساد والانحراف ، فإن صح هذا الادعاء فى شأن بعض الأديان ، فلا يصح بحال فى شأن الإسلام .

الإسلام فى الحقيقة ثورة إنسانية كبرى ، ثورة لتحرير الإنسان - كل إنسان - من العبودية والخضوع لغير خالقه . ثورة فى عالَم الفكر والضمير والشعور ، وثورة فى عالَم الواقع والتطبيق .

وكان عنوان هذه الثورة هى هذه الكلمة العظيمة ، كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » فكل مدّع أو متعاط للألوهية فى الأرض ، بالقول أو بالفعل ، هو مزوِّر لا وجود له ، ولا يستحق البقاء . وكل الذين زعموا لأنفسهم - أو زعم لهم بعض الناس - أنهم أرباب مع الله ، أو من دون الله ، يجب أن يسقطوا إلى الأبد ، ويتواروا عن مسرح الحياة .

الناس إذن سواسية ، لا يجوز أن يستعبد بعضهم بعضاً ، أو يطغى بعضهم على بعض ، فإذا ظلم بعض الناس وطغى وأفسد ، كان على الناس أن يعترضوا طريقه ، ويأخذوا على يديه ، وإلا كانوا شركاءه فى الإثم واستحقاق العقوبة العادلة من الله .

يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلَا تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ (٢) .

ويقول الرسول ﷺ : « إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده » (٣) .

ويوجب على كل مَن رأى منكراً - أى ظلماً أو فساداً أو انحرافاً - أن يعمل على تغييره بكل ما يستطع من قوة : « مَن رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (٤) .

والتغيير بالقلب - الذى هو أدنى الدرجات وأضعف الإيمان - ليس أمراً سلبياً تافهاً . إنها جمرة الغضب والكراهية للفساد والمنكر تتوهج وتتقد فى

---

(١) هود : ١١٣ (٢) الأنفال : ٢٥

(٣) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(٤) رواه مسلم وغيره .

الجوانح حتى تجد الفرصة للتغيير بالقول أو الفعل ، باللسان أو اليد ، وأدنى ثمراته العاجلة النفور من الظَلَمة والمفسدين والمقاطعة لهم ، فلا يؤاكلهم ولا يشاربهم ، ولا يجالسهم ولا يصاحبهم .

وقد عَدَّ النبى ﷺ مقاومة الظلم والفساد الداخلى ، كمقاومة الغزو والعدوان الخارجى ، كلاهما جهاد فى سبيل الله ، بل حين سُئِل : أى الجهاد أفضل ؟ قال : « كلمة حق عند سلطان جائر » (١) ، فاعتبر ذلك أفضل الجهاد وأعلاه .

فهذا دين يحرِّض على مقاومة الظلم حتى الموت ، ويعدّ الميت فى سبيل ذلك شهيداً فى سبيل الله ، بل فى طليعة الشهداء المرموقين ، بجوار حمزة ابن عبد المطلب ، سيد الشهداء ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

« سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام إلى إمام جائر ، فأمره ونهاه فقتله » (٢) .

إن الإسلام يُربِّى المسلم على الشعور بالكرامة وعزة النفس ، ويجعل ذلك من خصائص الإيمان وآثاره : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) ، بل من خصائص الإنسانية ولوازمها : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ (٤) .

ولهذا يبرأ الإسلام مِن كل مَن يرضى لنفسه بالذل والمهانة ، ويصبر على القيد يوضع فى رِجله ، أو الغل يوضع فى عنقه دون أن يقاوم الظلم ، أو يحاول التخلص منه ، ولو بالهجرة إلى أرض الله الفسيحة . يقول القرآن :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ (٥) .

---

(١) رواه النسائى بإسناد صحيح كما فى الترغيب .

(٢) رواه الحاكم والضياء عن جابر وحسَّنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير .

(٣) المنافقون : ٨ (٤) الإسراء : ٧٠ (٥) النساء : ٩٧

ويرد الرسول ﷺ منطق الاستسلام الجبرى أو السلبى لأحداث الحياة ووقائع الدهر ، باسم الإيمان بالقَدَر . ويعتبر ذلك ضرباً من العجز المذموم فى دين الله . إن النبى ﷺ قضى بين رجلين ، فقال المقضى عليه لما أدبر : حسبى الله ونِعْمَ الوكيل ! فقال النبى ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر ، فقل : حسبى الله ، ونِعْمَ الوكيل » (١) .

كره النبى ﷺ من الرجل أن يوارى عجزه بالحسبلة والحوقلة ، بدل أن يواجه الأمر بما ينبغى له من الحكمة والتفطن . فذِكْر الله فى غير موضعه عجز واستسلام .

ومن هنا جاء فى وصاياه صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف . . . احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز » (٢) .

وجاء فى أدعيته التى علَّمها لبعض أصحابه : « اللَّهم إنى أعوذُ بك من الهم والحزن ، وأعوذُ بك من العجز والكسل ، وأعوذُ بك من الجبن والبخل ، وأعوذُ بك من غلبة الدَّيْن وقهر الرجال » (٣) .

ففى هذا الدعاء استعاذة بالله تعالى من كل مظاهر الضعف التى تعترى الإنسان فتغلبه وتقهره وتذله .

ومثل ذلك ما جاء فى دعاء القنوت الذى يرويه ابن مسعود ، ويقرؤه الأحناف فى صلاة الوتر كل ليلة : « اللَّهم إنَّا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونُثنى عليك الخير كله ، نشكرك

---

(١) رواه أبو داود برقم (٣٦٢٧) .

(٢) رواه مسلم ، والعجز : ترك ما يجب فعله بالتسويف ، والكيس ، العقل وحُسن التصرف .

(٣) رواه أبو داود برقم (١٥٥٥) ، وفى سنده راوٍ ليِّن الحديث ، ولكن المفردات المستعاذ منها ثبتت فى الصحاح .

ولا نكفرك ، ونخلع ونترك مَن يفجرك » . . فانظر ما تحمله هذه العبارة : « ونخلع ونترك مَن يفجرك » من تحريض سافر على خلع ومقاومة كل ظالم فاجر ، مهما تكن مكانته ومنصبه فى الناس .

فهل يقال فى مثل هذا الدين الذى يدعو إلى الثورة على الباطل والضعف والعجز والعبودية ، ويحرِّض على نُصرة الحق والقوة والحرية - إنه أفيون الشعب : يُخدِّره ويمنيه بنعيم الجنة ، ليسكت على مظالم حياته الدنيا ؟!!

لعل « ماركس » كان معذوراً حين قال ما قال ، لأنه لم يعرف الإسلام ، ولم يعرف موقفه من الظلم والبغى والفساد ، مع أن المنهج العلمى كان يُلزمه ألا يصدر حكمه عاماً شاملاً إلا بعد استقراء كامل ، ودراسة تامة لكل الأديان - أو للأديان الكبرى على الأقل - وأثرها فى الأمم على مدار التاريخ ، فإن لم يستطع كان عليه أن يحكم على الدين الذى عرفه لا على غيره . هذا هو مقتضى الأمانة العلمية ، والمنهج العلمى .